العباسة أخت الرشيد
والموت في سبيل الحب

أصبحت العباسة واحدة من أشهر النساء في التـــاريخ، لســببين رئيسيين، أولهما: استعدادها الفطري وما تميزت به من جمال ساحر وشخصية متفردة، وثانيهما: حب رجلين لها، همـــا أخوهـــا أمـــير المؤمنين ووزيره جعفر.

لكن هذه الميزات التي نعمت بها العباسة، سرعان مـــا انقلبـــت عليها، وتآمرت للنيل منها، وأوقعتها في الهلاك!

عُرفت السيدة العباسة بأنها الجوهرة المكنونة، والزمردة النفيسة. أخت الخليفة وبنت الخلافة الذكية العالمة.

أجمل بنات المهدي، والدرة الثمينـــة بيـــن درر نســـاء القصـــر الملكي، أما قصة حياتها فقد كانت أسطورة ملهمة تثـــير الخيـــال، وتسيطر على المشاعر، وتزخر بالأحداث المدهشة.

لكنها مع ذلك: انتهت نهاية مأساوية غير متوقعة!

شبت العباسة مكرمة في عائلتها الهاشمية، تذكيها صفاتها الأخاذة وشخصيتها الفريدة ذات الطبيعة الخلاقة، فمالت إلى صنوف الفـــن

obeikandl.com

والأدب: ترتوي من نبعهما، ومع الأيام تألق نجمها في سماء الإبداع، وانساقت وراء ميولها: حتى برعت في الأدب والبلاغة والشعر، وضمت إلى مجالسها كل الموهوبين والمحدثين، فذاعت شهرتها، وعلت مكانتها وتغنى بها الشعراء، وزاد حولها المعجبون، وأول هؤلاء المعجبين هو أمير المؤمنين ــ أخوها ــ الرشيد، فقد كانت العباسة هي الأثيرة لديه، القريبة من قلبه ووجدانه، توثقت علاقتهما وزادتها الأيام متانة، حتى لم يعد الرشيد يقو على الافتراق عن أخته المحبوبة، كان لا يسأم من الجلوس إليها ومنادمتها بالساعات الطويلة.

ولم يصل أحد إلى مكانتها عنده إلا وزيره جعفر.

كان جعفر البرمكي أخلص خلصائه وأوفى أتباعه والأقرب إليه، كان هو والعباسة افضل الناس عنده، لذلك لم يتردد الخليفة في الجمع بين أهم شخصيتين في حياته، في جلساته الخاصة.

فبينما كانت أشعار أخته ومآثرها الأدبية تجلب السرور.

كانت مواعظ جعفر وحكمته البليغة تثلج صدره وتملؤه بالسكينة.

وكانت العباسة بما وصلت إليه من علم ورجاحة رأي تُعد من حكيمات عصرها، فكان الرشيد يثق فيها ويسعى لمشاورتها في الكثير من المسائل، كما كان الثلاثة: الرشيد والعباسة وجعفر يتواصلون بالحديث في مختلف الأمور الشيقة، ويتسامرون ويحلقون

في سماء الشعر والفنون، تكتنفهم السعادة وتملأ قلوبهم النشوة، فما كان أبهى هذه اللحظات، وما أندر أن يجود الزمان بمثلها.

لكن العلماء وأكابر الدولة لم يعجبهم هذا الوضع.

إذ كيف يسمح أمير المؤمنين أن يجلس جعفر مع العباسة دون سند شرعي؟ وكيف تنكشف عليه، وهي ليست حلاً له؟!

ولقد سعى هؤلاء القوم لإضفاء صيغة شرعية على هذه اللقاءات، والتي اعتبروها غير لائقة، منتقدين استمراء جعفر لهذا الوضع، فأخذوا يشيرون على الخليفة بتزويج العباسة لجعفر منعاً لأي سوء.

لكن الرشيد رفض الفكرة رفضاً قاطعاً.

إذ كيف يزوج العباسة الشريفة سليلة العائلة النبوية بنت الملوك العظام، من جعفر المملوك الفارسي الذي مهما علا شأنه، فهو لا يطاول سيدة من سلالة بني هاشم.

عندئذٍ اجتمع العلماء يتشاورون في هذه المشكلة، فلابد من إيجاد حل آخر بعد أن رفض الخليفة فكرة الزواج، ورفض قبلها أن يضع حداً للمجلس الثلاثي!

حقاً.. كان الرشيد متشبثاً بهذا "الأنس الثلاثي" كما كان يطلق عيه.

ففيه كان ينسى همومه وضغوط الحياة المليئة بالصعاب والمعارك، وينعم بلحظات من الود الصافي والسعادة الروحية المشرقة.

لذلك سعى الفقهاء أن يجدوا مخرجاً من الورطة، للتوفيق بين رغبة الخليفة من جهة وتعاليم الشريعة من جهة أخرى.

ولقد وجدوا هذا الحل في فكرة غريبة!

أجاز الفقهاء للخليفة أن يجتمع جعفر والعباسة بشرط أن يعقد عليها جعفر عقداً صورياً، أي ان يتزوجها على الورق فقط، حتى يصبح من حقه الجلوس معها، ويصبح محللاً لها أن تكشف عليه، على ألا يلمسها ولا تكون بينهما زيجة حقيقية.

وهكذا أرضى الفقهاء كل الأطراف بهذه الفتوى.

فلقد انشرح صدر الخليفة لهذا الحل، ووجده أنسب الحلول، كي يتمتع بصحبة أحب اثنين له في الوجود.

ولكن الخليفة لم يكن يعلم أن سهام الحب قد أصابت قلب العباسة وجعفر، وأن ثمة غرام وشيك يتأجج في القلبين المحاصرين بالرفض.

لم يضع الخليفة في حسبانه احتمالات من هذا النوع!

والآن.. ماذا يفعل جعفر؟!

لم يكن بيده أن يقع في هوى العباسة، لقد سلبت مشاعره رغماً عنه.

كان يزداد بها تعلقاً يوماً بعد يوم، فقد قهرته، واستحوذت عليه بمزاياها الروحية وفتنتها الأنثوية، فاستسلم لها واستسلمت هي أيضاً، فقد كان كل منهما جديراً بالآخر، وبعد، فإن نيران العشق التهمت كل الحواجز، قهر الحب الحكمة وطوّعها لإرادته، فاستباحا

أن ينعما بهدية القدر. وهناك في قصر العباسة، بعيداً عن أعين الرشيد، أشبعا رغبتهما في الحب والزواج.

اعتاد جعفر الزيارات الليلية، وارتضت العباسة بالحب في الخفاء، وأخذا ينعمان بالغرام الملتهب والنشوة الثملى، حتى أثمرت هذه العلاقة عن طفل، فاضطرا أن يخفيا خبر مولد الطفل عن الرشيد حتى يتجنبا غضبه وانتقامه، فأرسلاه إلى مكة بعيداً عن أعين الرقباء وأطلقا عليه "الحسن".

في ذلك الوقت وقعت الحادثة التي فجرت المأساة!!

نشبت الثورة في أحد الأمصار، فقد خرج رجل اسمه يحيى بن عبد الله العلوي على الرشيد، وأراد أن ينفصل عن الخلافة، فوجه إليه الخليفة جيشاً بقيادة الفضل بن يحيى لإخماد قورته، والقبض عليه، وبعد حصار شديد سعى يحيى إلى إبرام الصلح، فوافق جعفر وبعث إليه يؤمنه على حياته وماله.

ولكن الفضل تحايل بعد ذلك، حتى صحب يحيى معه ودخل به على الرشيد، وهناك أمر الرشيد بالقبض عليه وحبسه. فلما رأى يحيى المصير الذي آل إليه: أرسل إلى جعفر قائلاً له: "لقد كتبت لنا أماناً فحضرنا إليك، فإذا أنت أمرت بإبقائي في السجن عرّضت نفسك لقهر الله وغضبه".

فلما اضطلع جعفر على هذه الرسالة، أطلق سراح يحيى على الفور.

لكن أعداء جعفر وعلى رأسهم زبيدة زوجة الخليفة، كانوا له بالمرصاد، لذلك لم يضيعوا هذه الفرصة من أيديهم، فقد حان وقت إفشاء الأسرار، والقضاء على جعفر.

وبالفعل نُقل إلى الرشيد خبر الإفراج عن عدوه يحيى بإذن من جعفر، كما اطلع كذلك على سر الزيارات الليلية، وما أثمرت عنه من طفل وليد، فنزلت هذه الأخبار عليه نزول الصاعقة.

صدمته حقيقة هذه الخيانات المزدوجة من أقرب الناس إليه، فطاش عقله وسكن قلبه الهم والحزن والحسرة، ومثلما كان متعصباً في حبه للعباسة وجعفر، هاهو الآن يصبح متعصباً في انتقامه، لم يشفع لهما شيء من ذكرى.

فلقد قرر الرشيد معاقبتهما بالموت!

ثم أرسل إلى مسرور الجلاد، فبعثه للقضاء على جعفر، فلما عاد اصطحبه إلى قصر أخته، وهناك واجهها، ثم أمر مسرور بقتلها، فأطار رأسها بضربة واحدة من سيفه، فوقع على الأرض متدحرجاً بين قدمي الرشيد.

وهكذا ماتت العباسة بسبب الحب.

هذا الحب الذي رفعها إلى أقصى درجات المجد.

وهو الذي هوى بها، وقضى عليها آخر الأمر.